

وتوقف عند "تهافت" ابن رشد والإمام الغزالي، وبعضهم غرق في دوامات الثورة الفرنسية واوغوست كومت، وبعضهم تلهى وانشغل بمذيان دركهايم... ولم تكلّل الحركة أبداً، لكن لم يحسبوا حساب العصر حيناً، أو تراكضوا وراء الأحلام وحدها، أو اتخذت الأهواء والرغبات آلهة من دون الله فتبدد في الحيرة والضياح ميراث ألف سنة من القيم "المليّة". ويا ليتنا استطعنا الآن أن نتجاوز هذه السلبيات... هيهات هيهات! فلسنا ندعي أننا ننظر بعين الرضا إلى هذا الجانب من واقعنا. فكّم أتمنى أن نتجاوز السلبيات كلها، وأن نطور نظاماً فكرياً وفلسفة "مليّة" تتغذى من مصادرنا الذاتية!

وأشير هنا إلى أن آراءنا ستتناقض مع بعضها باستمرار وسينهش بعضها بعضاً في فسخ "التعارض والتساقط"، بسبب الاختلاف في زوايا الشعور والإحساس بالكائنات وتفسيرها، ما لم نُقِم ما نبنيه على قاعدة فكرية راسخة كهذه، وما لم نمتلك نظاماً فلسفياً كهذا. فيجب تحقيق عائدية مستقبلنا إلينا، مثلما حاضرننا، بهذه الأصول، وبهذا النظام، وبفيض أسلوب تنقاسمه الأجيال جميعاً. فإذا لم تتحقق الوحدة في مشاعرنا وفكرنا ونمط حياتنا، فستظل الوحدة "المليّة" والتضامن "الملي" أمنية حماسية. فالمنطلق "الملي" والفكر "الملي"، والمحكمة "المليّة"، وواردات الروح، أمور بالغة الأهمية في أي نظام من الأنظمة. فإن أي نظام فكري يستطيع أن يحقق وحدة الحس، ووحدة المنطق، ووحدة المحاكمة، وسهولة التعايش معاً لشعب من الشعوب، بالمقياس والقدر الذي يستمد من عقل الشعب ووجدانه وعالم أحاسيسه... وعلى الضد إذا تصادمت المشاعر والأفكار والتفاسير والأساليب، وتناقضت المحاكمات، فإن تراحم